القرآن «آية إلهية».. رغم اختلاف مصاحفه

□ كيف يمكن أن نثبت أن كل آية فى القرآن هى كلام الله؟ □ لماذا فشلت أمهات كتب علوم القرآن فى أن تثبت بمذاهبها ومدارسها العقدية المختلفة أن الجمَل المدوَّنة فى المصحف اليوم هى كلام الله؟ □ لماذا كتبت كلمة «إبراهيم» فى جميع سور القرآن بحرف الياء عدا سورة البقرة حيث كتبت «إبْرَهِم» دون ياء؟

د.محمد السعيد مشتهرى

إن ربط مسألة **الإسناد** بالقراءات القرآنية، وهو القاعدة الرئيسية التى قام عليها علم الحديث، لإثبات أن القرآن وصل إلينا بـ«الرواية» عن رسول الله، كما وصلت إلينا «أحاديثه»، أمر فى غاية الخطورة على الفكر الإسلامى، وعلى ثقافة المسلمين الدينية.

إن أقصى ما يمكن أن يتوصل إليه علم الإسناد هو إثبات صحة ما نسبه الرواة إلى رسول الله من قراءات قرآنية، ودين الله لا تثبت حجيته بصحة النسبة إلى الرسول، وإنما بصحة النسبة إلى الله تعالى، الأمر الذى يحتاج إلى برهان من الله يثبت هذه الحجية، وهذا البرهان لا يملكه علم *الإسناد، وهذا ما غاب عن أئمة السلف والخلف*، وعن أنصار فقه الحداثة والمعاصرة.

إننى عندما أريد الاستدلال بكلام الله تعالى أقول: قال الله. وأقرأ الآية مباشرة من المصحف، دون إسنادها إلى أحد من البشر، ولو كان الرسول نفسه، فإذا سألنى سائل: وما الدليل على أن هذا الذى تقرؤه هو كلام الله؟! هنا لزم البيان:

أولاً: يستحيل أن يثبت أحد من الإنس والجن أن هذه الجمل المدوّنة فى المصحف هى كلام الله عن طريق علم الرواية والإسناد، ذلك أن آخر ما يمكن أن يتوصل إليه هذا العلم هو إثبات مدى صحة النسبة إلى رسول الله، وليس إلى الله تعالى، وهذا هو مربط الفرس.

إن الذى يحتاج إلى سند هو الشىء المائل الذى لا يقوم إلا به، وإلا وقع، وإذا كان هذا هو حال الأحاديث التى نسبها الرواة إلى رسول الله، والتى يستحيل أن يكون لها وجود أصلا إلا بـ«السند الروائى»، فإن كلام الله يستحيل أن تثبت حجيته بهذا «السند الروائى»، وهاهى أمهات كتب **«علوم القرآن»** أمامكم، أرونى كيف أثبتت، بمذاهبها ومدارسها العقَدية المختلفة، أن الجمل المدونة فى المصحف اليوم هى كلام الله؟!

ثانيًا: إن القراءات القرآنية المنتشر مصاحفها بين المسلمين اليوم، هى:

١- قراءة حفص «ت ١٨٠هـ» عن عاصم «ت ١٢٧هـ».

٢- قراءة ورش «ت ١٩٧هـ» عن نافع بن عبد الرحمن «ت ١٦٩هـ».

٣- قراءة قالون «ت ٢٢٠هـ» عن نافع بن عبد الرحمن «ت ١٦٩هـ».

فإذا نظرنا إلى هذه المصاحف، لن نجد سورة واحدة مختلفة فى قراءة من هذه القراءات عن غيرها، ولا حتى أصغر سورة، وهى الكوثر، فماذا يعنى هذا؟!

إن الله تعالى عندما أراد أن يقيم الحُجة على المكذبين بنبوّة رسوله محمد، لم يطلب منهم أن يأتوا بكلمة من كلمات هذا القرآن، أو برسم مختلف لها، أو بإعراب مختلف، أو أن يغيروا الفعل الماضى إلى الحاضر أو المستقبل...، وإنما طلب منهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، فعجزوا عن أن يأتوا حتى بمثل سورة الكوثر، فهل اختلفت سورة الكوثر، بجمَلها الثلاث الموجودة فى هذه المصاحف بقراءاتها المختلفة؟!

أليس وجود قوله تعالى: «وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ...»، فى هذه المصاحف، بقراءاتها المختلفة، دليلا على أن عجز أهل اللسان العربى عن أن يأتوا بسورة من مثله قد شمل سور هذه المصاحف، بقراءاتها المختلفة، وبالتالى تكون قد حملت جميعها «الآية الإلهية» الدالة على أن هذا القرآن هو كلام الله يقينًا؟!

لقد أحصى الدكتور محمد الحبشى ما ورد من اختلاف بين المصاحف فى كتابه «الشامل فى القراءات المتواترة»، وهو رسالة دكتوراه، يقول فى المبحث الثالث منها، تحت عنوان «حصر تفاوت مصاحف الأمصار»:

«ولنأخذ الآن فى إحصاء ما ورد من خلاف فى الرسم بين المصاحف العثمانية على سبيل الإحاطة المستوعبة»، ثم قال: «سائر الاختلاف فى الرسم محصور فى ٤٩ كلمة...»، ثم ذكر *الآيات التى وردت فيها هذه الكلمات* بصورها المختلفة، ويمكن للقارئ الكريم أن يطّلع على هذا المبحث، وغيره من عشرات الدراسات، ليقف على ما حملته هذه الاختلافات من صور بلاغية.

ثالثًا: إن «الآية الإلهية» هى البرهان الدال على صدق الله فى ما أنزل، وصدق الرسل فى ما بلغوا عن ربهم من رسالات، ولقد كانت هذه الآيات حسية، لا تقوم حجيتها إلا على مَن شاهدها، فإذا توفى النبى انتهت بوفاته فاعلية آيته، ثم بعث الله نبيه الخاتم محمدًا، بـ«آية عقلية»، لا تنتهى فاعليتها بوفاته، بل تظل قائمة بين الناس إلى يوم الدين.

إن «الآية العقلية» الدالة على صدق «نبوّة» رسول الله محمد هى كتاب الله الخاتم، ورسالته إلى الناس جميعا، هى القرآن الكريم، ولا تثبت حجية هذه الآية بنصوصها المدوّنة فى المصاحف فقط، وإنما بتفاعلها مع المقابل الكونى لها فى هذا الوجود، ولقد سبق أن ذكرت البراهين الدالة على ذلك فى مقالى «حجية القرآن ليست فى نصوصه فقط وإنما فى مقابلها الكونى».

إن كل المصاحف المتداولة بين أيدى المسلمين اليوم، كتاب إلهى واحد، يبدأ بسورة الفاتحة، وينتهى بسورة الناس، ويشهد بدلائل الوحدانية، وبصدق «نبوة» رسول الله محمد، وقد حمل للناس الآية بمعناها الكونى، وهو تفاعل كلام الله المقروء مع مقابله الكونى، الذى لا حدود له، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى: «قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا».

رابعًا: إننا قد نعلم اليوم الحكمة من اختلاف المصاحف وقد لا نعلمها، وقد يأتى مَن يعلمها، ثم يأتى مَن هو أعلم منهم، وهذا وجه من الوجوه الدالة على أن هذا القرآن من عند الله يقينًا، وسأضرب بعض الأمثلة، لبيان أن هناك مَن لهم دراية بعلم البيان، ففهموا الاختلافات الموجودة بين كلمات بعض الآيات على النحو التالى:

الأول: يقول الله تعالى فى سورة آل عمران «الآية ١٨٤»:

«فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ».

لقد أضيف حرف «الباء» إلى كلمة «البينات» فقط، ولم يضف إلى كلمتى «الزبر» و«الكتاب»، وهكذا كُتبت هذه الآية فى جميع المصاحف المتداولة اليوم، بقراءة حفص عن عاصم، وبقراءة ورش وقالون عن نافع.

ولكننا نجد أن قراءة هشام عن ابن عمر أضافت حرف «الباء» إلى كلمتى «الزبر» و«الكتاب»، فجاءت الآية هكذا: «فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ»، كما نجد أن ابن ركوان قرأها عن ابن عمر بإضافة حرف الباء إلى كلمة «الزبر» فقط، فجاءت الآية هكذا: «فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ».

فإذا نظرنا إلى جميع المصاحف المتداولة بين المسلمين اليوم، لا نجد فيها إضافة حرف «الباء» إلى كلمتى «الزبر»، و«الكتاب»، إذن فما الحكمة من زيادة حرف «الباء» فى القراءات الأخرى؟!

إن الحكمة نجدها فى علم «الحذف والإضافة»، فإذا قلت: مررت بزيد وعمرو، يفهم من كلامك أنك مررت بهما فى مرور واحد، أما إذا قلت: مررت بزيد وبعمرو، بإضافة حرف «الباء» إلى عمرو، يُفهم من كلامك أنك قد مررت بهما فى مرورين.

إذن فإضافة حرف «الباء» إلى الكلمة قد أفادت معنى جديدا إلى السياق، وإلا ما كان لإضافته معنى، وهنا تكمن الحكمة من اختلاف القراءات، فهو ليس اختلاف تضاد وإنما مزيد بيان. وبرهان ذلك أن جميع المصاحف التى لم تضف حرف «الباء» إلى كلمتى «الزبر» و«الكتاب» جاءت وأضافته إلى نفس الكلمتين فى «الآية ٢٥» من سورة فاطر، فتدبَّر:

«وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ».

المثال الثانى: يقول الله تعالى فى سورة الروم، «الآية ٩»:

«أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً...».

لقد وردت كلمة «مِنْهُمْ»، فى قوله تعالى: «أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً»، وأيضًا فى قوله تعالى فى سورة فاطر «الآية ٤٤»، وقوله تعالى فى سورة غافر «الآية ٢١»، إلا أننا نجد ابن عمر قرأها «مِنكُمْ»، فى سورة غافر فقط، فهل هناك حكمة فى ذلك؟!

نعم، هناك فى علم البيان ما يُعرف بتوجيه الضمائر، وبأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الحضرة، فإذا أريد توجيه الضمير إلى الغائب استخدمت كلمة «منهم»: «كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً»، وإذا أريد الالتفات من الغيبة ومخاطبة الحضور، استخدمت كلمة «منكم»: «كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً»، وهذه الأساليب البيانية لها ما يؤيدها من كتاب الله، كقوله تعالى فى سورة يونس «الآية ٢٢»: «هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ». فنلاحظ أنه بدأ يخاطب الحضور: «هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ»، يذكرهم بنعَم الله عليهم، ثم انتقل إلى الذين كفروا بنعم الله، وتحدث عنهم بضمير الغيبة: «وَجَرَيْنَ بِهِم»، والذى يؤكد أن ضمير الغيبة يعود إلى الذين كفروا بنعم الله، قوله تعالى بعدها «الآية ٢٣»: «فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ»، والمؤمنون الشاكرون لا يبغون فى الأرض بغير الحق.

المثال الثالث: يقول الله تعالى فى سورة آل عمران، «الآية ١٤٦»: «وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ».

قرأ قالون وورش عن نافع هذه الآية: «وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قُتِلَ مَعَهُ»، وليس «قَاتَلَ مَعَهُ»، فمَن قرأ: «قُتِلَ مَعَهُ» كان قوله تعالى: «فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ...» مدحًا للبقية الذين لم يقتلوا، ومن قرأ: «قَاتَلَ مَعَهُ»، كان قوله تعالى: «فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ...» مدحًا للمقاتلين جميعًا، وكان من قُتل منهم داخلاً فى المدح، فتكون كلمة «قَاتَلَ» أعم.

المثال الرابع: يقول الله تعالى فى سورة البقرة، «الآية ١٢٤»: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ».

يعتقد البعض أن كلمة «إبراهيم» كُتبت فى سورة البقرة، فى جميع المصاحف، من دون حرف «الياء»: «إبْرَهِم»، مع إضافة الألف الصغيرة بعد الراء، ثم جاءت فى باقى السور بحرف «الياء»: «إبراهيم». إن كلمة «إبْرَاهِيمَ» كُتبت فى المصاحف، حسب قراءة ورش وقالون عن نافع، فى جميع سور القرآن بحرف «الياء»: «إبْرَهِيمَ»، مع إضافة الألف الصغيرة بعد الراء، وقرأت كذلك حسب قراءة ابن كثير، وشعبة عن عاصم، وأبى جعفر، ويعقوب الحضرمى، ولم تُكتب من دون حرف «الياء»: «إبْرَهِم»، إلا فى سورة البقرة فقط، بقراءة حفص عن عاصم، ومع ذلك يقرؤها المسلمون «إبْرَاهِيمَ».

والسؤال: مع وجود عشرات الدراسات المنشورة على شبكات التواصل الاجتماعى تجيب عن جميع شبهات المشككين فى حفظ الله لكتابه، وتبين الحكمة من اختلاف المصاحف، هل وجدنا قارئا من القراء، على مر العصور، استغل مسألة اختلاف المصاحف، للطعن فى حفظ الله لكتابه، وفى صدق «نبوة» رسول الله محمد؟!

الجواب: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

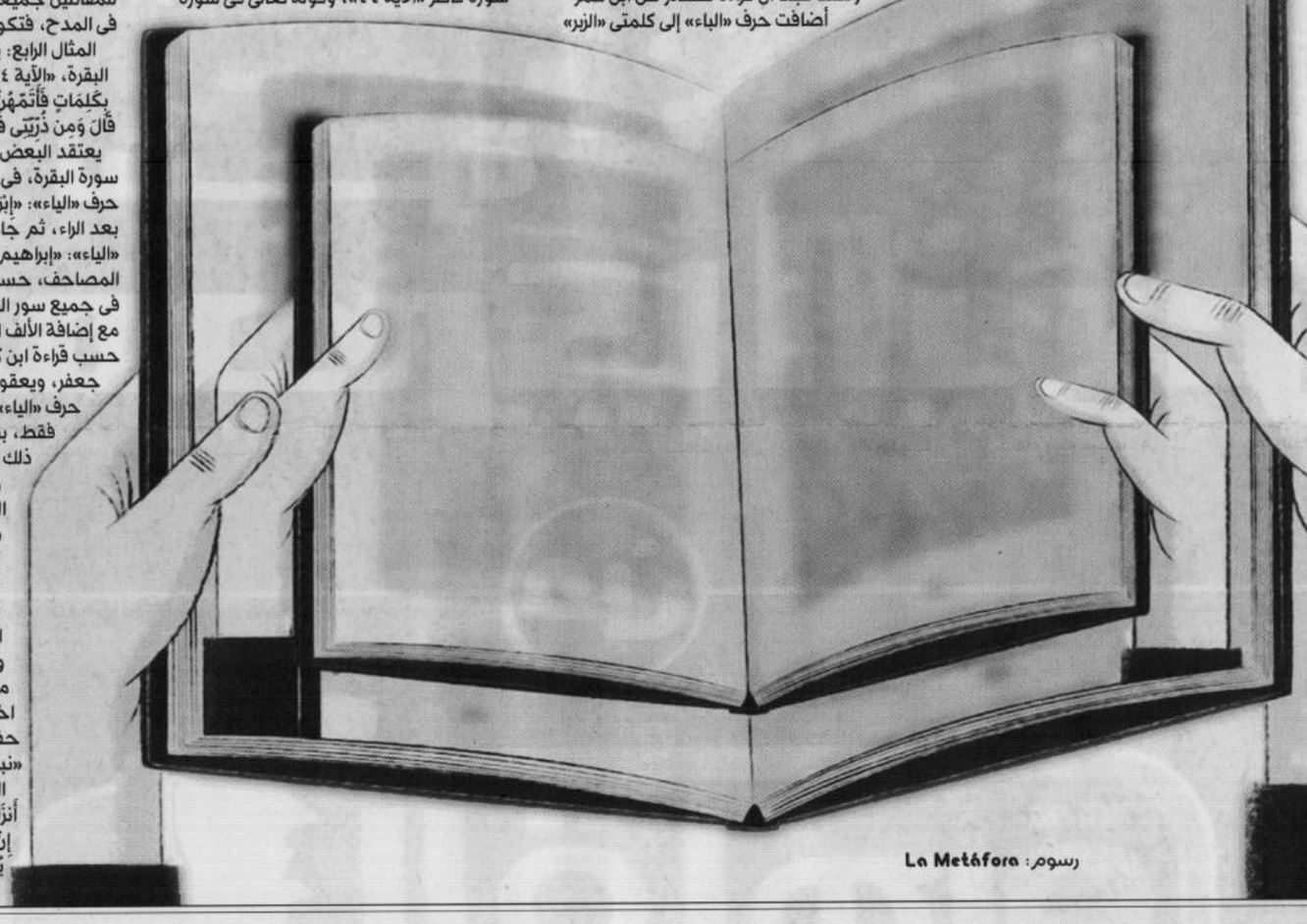

رسوم: La Metáfora

الإسناد

علم يبحث فى الطرق الموصلة إلى مصدر قائل الحديث، عن طريق الرواة الذين نقلوا عنه حديثه، ويستخدمه علماء الحديث لمعرفة صحة الحديث وضعفه، عن طريق بحث أحوال هؤلاء الرواة، من حيث الجرح والتعديل.

علوم القرآن

هى ما دونه أئمة السلف فى أمهات الكتب من علوم التفسير، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والقراءات، والرسم العثمانى، وكل ما يتعلق بالدراسات القرآنية من فقه اللسان العربى، ويشمل إعراب القرآن وصوره البلاغية.

7 خطوات من أجل تجديد الخطاب الدينى

□ كيف يمكن تحليل عناصر الخطاب الدينى والتعامل معها جيدا؟ □ ما أهم أزمات الخطاب الدينى فى مصر منذ عقود طويلة؟ □ لماذا لن تجدى محاولات الرئيس إذا استمر على نفس المنهاج الحالى؟

أحمد وفيق

حتى لا يكون نقدنا الموجه إلى الرئيس، والمؤسسات الدينية فى الدولة، بشأن إخفاقهم، حتى الآن، فى تحقيق ما سبق وأعلنوا عنه منذ أكثر من عام ونصف العام حول ضرورة تقديم خطاب دينى جديد يتلافى أخطاء الماضى، ويساعد على بناء مصر الجديدة التى نحلم بها، كلاما وخلاص.. فى ما يلى ملامح عامة -أظن- لا يمكن بدونها أن يكون لدينا الخطاب الدينى المأمول حتى ولو مر مئة عام لا عام ونصف فقط.

فى البداية: الخطاب الدينى باختصار هو الخطاب ذو المرجعية الدينية فى لغته وعناصره ومضمونه العام، والذى يتوجه بشكل مباشر إلى الناس على أساس انتماءاتهم الدينية فقط، ويفترض فيه أنه يعلم المؤمنين كيف يسيرون فى الطريق الصحيح المؤدى بهم فى النهاية إلى الجنة. ويعانى خطابنا الدينى منذ عقود من أزمتين رئيستين: الأولى: ضعف واضح ومريع من جانب المؤسسات الدينية الرسمية للدولة فى مقابل قوة الخطاب الصادر من أفراد منتمين إلى جهات مختلفة، والثانية: تحوله مع مرور الوقت من كيف تصل للجنّة إلى كيف تصبح سلفيا وهابيا بامتياز، وحتى نتخلص من هاتين الأزمتين، وغيرهما، أعتقد أنه لا غنى عن تفكيك عناصر الخطاب الدينى والتعامل معها كل على حدة.

أولا مقدم الخطاب:

الموظفون لا يبدعون؛ فشيخ **الأزهر** مع علمه موظف ومن معه كذلك، تركت قيود اللوائح والقوانين ومراعاة أمور كثيرة تأثيرها على شخصياتهم. البديل الأنسب هم المثقفون الحقيقيون، أصحاب الرؤى، والحرية فى التفكير، والمنحازون فقط إلى المعرفة.

ثانيا مستقبل الخطاب:

تعليم التلقين والحفظ لن ينتج سوى حالة جهل عامة، كتلك التى نلمسها حولنا فى شتى مناحى الحياة المصرية. تربية أجيال جديدة على التفكير والبحث والابتكار حتى لا يقعوا فريسة للدجل الدينى نصف الحل.

ثالثا محتوى الخطاب:

الحديث عن الماضى القصى أو المستقبل البعيد تغييب للعقل؛ فذكريات الأسلاف وحكايات الآخرة لابد أن تتراجع لصالح قضايا: الآن، زماننا، وهنا، وطننا. كما يجب أن لا يكون المحتوى رد فعل على أحداث تطفو على سطح اهتمامات المجتمع، بل عليه أن يتناول مناطق جديدة مبادرا بتقديم رؤيته لها، وينبغى أن يكون محتوى مصريا أصيلا: لا يغفل جذورنا التاريخية ولا يُهمل تطلعاتنا إلى الغد.

رابعا وسيلة الخطاب:

خطبة الجمعة باتت فلكلورا شعبيا؛ فأغلب المصلين يشردون بعيدا عما يقوله الخطيب ويذهبون إلى المساجد من باب التعود، لذلك الاعتماد على خطبة الجمعة من أجل توصيل الخطاب الدينى بشكله الجديد لن يؤتى بالنتائج المرجوة، وكذا البرامج الفضائية. أرى أن تفعيل مراكز الشباب وقصور الثقافة وتنشيطها بعدد كبير من الندوات والمناظرات حول القضايا المطروحة أجدى وأنفع.

خامسا هدف الخطاب:

لا كتالوج فى عبادة الخالق، فعلى الخطاب الدينى أن لا يستمر كنوع من الوصاية على المؤمنين فى طريقة عبادتهم لله، فقط عليه أن يعلمهم كيف ينصهر مكون الدين ضمن باقى المكونات الثقافية للمجتمع المصرى.

سادسا مرجعية الخطاب:

النصوص الثانية وشروحها تؤدى إلى كوارث، ليكن مرجعية أى خطاب دينى النص الإلهى فقط، حتى لا نجد بين أيدينا خطابا مفككا ومتناقضا فى أغلبه.

سابعا مدخل الخطاب:

دغدغة المشاعر أسوأ ما يمكن الاعتماد عليه، كفانا لعبا على عواطف الناس الدينية، أو مغازلة غرائزهم. العقل دون غيره هو ما يجب أن يصبح مدخلا ينفذ منه الخطاب الدينى إلى المصريين.

رسوم: Conegliano

الأزهر

المؤسسة الدينية الرسمية فى مصر، وتضم الجامع الأزهر المبنى منذ 1040 سنة، ومعه جامعة الأزهر، ويتبع الاثنان شيخ الأزهر، الذى يتم تعيينه من جانب رئيس الجمهورية، ويشغل هذا المنصب الآن الدكتور أحمد الطيب.